أبو الفتح بن جني

وأثره في اللغة العربية

عصره ، مكانته العلمية ، آثاره [1]

-٣-

العراق عامة والموصل خاصة في القرن الرابع

شهد العراق - والموصل بصورة خاصة - في هذا القرن أحداثاً سياسية جساماً كان لها أثرها القوي في الحياة العلمية والحياة العقلية .

في هذا القرن أخذت الأقاليم الاسلامية تنفصل سياسياً عن بغداد ، ومن هذه الأقاليم إقليم الموصل الذي أخذ يسير في طلب شبه استقلال سياسي منذ أواخر القرن الماضي (سنة ٢٩٢ هـ) حين ابتدأ حكم بني حمدان يمتد اليه . وقد حاول الخليفة المقتدر القضاء على هذا الانفصال لخطر هذا الاقليم وقربه من دار الخلافة ولأنه الثغر القوي الذي تسير منه الجيوش الاسلامية الى غزو الروم ، فمن امتلكه وسيطر عليه وضع يده على قلعة عظيمة من قلاع الاسلام . أحس الخليفة المقتدر أن سلطان الحمدانيين أخذ يقوى وأن نفوذهم ابتدأ يطغى على ذلك الإقليم فأرسل في سنة ٣٠١ هـ القائد يمناً الطولوني لعزل أبي الهيجاء عبد الله ابن حمدان عن إمرة الموصل فعزله ثم تعاقب على الموصل بعد أمد قصير أمراء

(١) هذا هو الفصل الثالث من البحث الذى نشر الفصل الأول منه في الجزء الرابع من المجلد الرابع والعشرين (ص ٥٣٧ - ٥٤٦) والفصل الثاني منه في الجزء الأول من المجلد الخامس والعشرين (ص ٧٨ - ٨٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيرون منهم يمن هذا ، ومنهم نحرير الخادم الصغير وغيرهما ؛ كل هذا وأبو الهيجاء ابن حمدان مرابط يراقب الحالة عن كثب ويتهيأ لعمل حاسم ولو كان في ذلك إعلان للثورة على الخلافة ، ولكن الخليفة أحس بذلك فأرسل جيشاً قوياً بقيادة مؤنس المظفر وجماعة من القواد ، فعلم أبو الهيجاء أن لا قبل له بذلك الجيش فاستأمن وأخذه مؤنس الى الخليفة فعفا عنه وخلع عليه ثم عاد فولاه الموصل في سنة ٣٠٢ هـ ورجع اليها وبقي فيها كأنه مخلص للخليفة الى سنة ٣٠٧ فعزله الخليفة المقتدر بالعباس بن محمد بن اسحق بن كنداج ، وظل أبو الهيجاء بعيداً عن إمارته الى سنة ٣١٤ هـ ثم أعاده الخليفة اليها بعد سعي طويل ، ومنذ ذلك الحين حتى أواخر هذا القرن ظل بنو حمدان يتقلبون عليها : ففي سنة ٣١٤ سافر أبو الهيجاء الى بغداد وترك أمر البلد الى ابنه الحسن ـ الذي عرف فيما بعد ـ بناصر الدولة . وفي سنة ٣١٨ هـ وقعت فتنة بين بني حمدان : ناصر الدولة وعمّيه سعيد ونصر فغلباه على أمره واستوليا على المدينة . وفي سنة ٣٢٣ هـ وقعت فتنة ثانية فقتل ناصر الدولة فيها عمه أبا العلاء وغضب الخليفة الراضي بالله لهذا الأمر فأمر وزيره ابن مقلة أن يتوجه بجيش الى الموصل فسار اليها فلما قاربها رحل عنها ناصر الدولة فأقام ابن مقلة بها يجبي مالها ، ولما طال مقام الوزير بها احتال بعض أصحاب ابن حمدان على ولد الوزير ، وكان ينوب عن أبيه ببغداد فبذل له عشرة آلاف دينار ليكتب الى أبيه يستدعيه زاعماً أن الأمور بالحضرة قد اختلت فسار الوزير واستعمل على الموصل علي بن خلف بن طياب ، وماكرد الديلمي الساجي ، وانحدر الى بغداد فرحل ناصر الدولة الى الموصل وما لبث أن استعادها بعد قتال ثم كتب الى الخليفة الراضي بالله يسترضيه فرضي عنه ، ثم عاد ثانيةً فأغضب الخليفة لأنه أخّر عنه المال المفروض عليه فسار الخليفة نفسه الى الموصل على رأس جيش يريد التخلص من ناصر الدولة وألاعيبه وكان معه على قيادة ذلك الجيش القائد بجكم ، والقاضي أبو الحسين عمر بن محمد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولما بلغ الخليفة وجنده تكريت بدا له أن يبقى فيها ويبعث بالجند وعلى رأسهم بجكم ، فذهب هذا وقاتل ناصراً وهزمه . وبينما كان الخليفة غائباً عن بغداد إذا هو بابن رائق الثائر يحتل العاصمة ويبلغ الخبر الراضي فيرجع اليها ويصالح ناصر الدولة على خمسمائة ألف درهم كل سنة . ويظل ناصر الدولة الأمير المطاع في الموصل حتى سنة ٣٤٦ ، وفيها يبلغه أن معز الدولة بن بويه توجه يريد الموصل فأرسل اليه ناصر الدولة يضمن الإقليم بألفي ألف درهم وحمل اليه مثلها فرجع معز الدولة ، ودخلت سنة ٣٤٧ هـ فلم يرسل ناصر الدولة الضمانة فتجهز معز الدولة ومعه وزيره المهلبي الى الموصل ففرّ ناصر الدولة عنها واستولى عليها معز الدولة وكان من عادة ناصر الدولة إذا فرّ أن يستصحب معه جميع الكتاب والوكلاء ومن يعرف أبواب المال ومنافع السلطان في البلد وربما جعلهم في قلاعه كقلعة أردمشت المعروفة بقلعة (كواشي) أيضاً وقلعة الزعفران [1] . وضاقت الأقوات على معز الدولة فلحق بناصر الدولة وهو بنصيبين واستخلف على الموصل سبكتكين الحاجب الكبير . ولما بلغ ناصر الدولة ذلك فرّ الى أخيه سيف الدولة في حلب وأقام عنده فسعى سيف الدولة في الصلح بينه وبين معز الدولة ورجع ناصر الدولة الى الموصل في أوائل سنة ٣٤٨ هـ وهدأت الأمور خمس سنوات كان ناصر الدولة خلالها يؤدي الضمان الى معز الدولة . وفي سنة ٣٥٣ هـ تخلف عن إرسال المال لأنه طلب من معز الدولة أن يجعل أمر الموصل من بعده الى ابنه أبي تغلب فضل الله المعروف بالغضنفر فلم يجبه الى ذلك فرفض إرسال المال اليه . ولما شعر ناصر الدولة بزحف معز الدولة اليه ترك الموصل كعادته الى نصيبين فدخل معز الدولة الموصل وأمّر عليها أبا العلاء صاعد بن ثابت وسار الى نصيبين فلما قاربها فارقها ناصر الدولة فرجع معز الدولة الى الموصل لأنه علم أن أبا تغلب قصد الموصل وحارب من بها وأحرق السفن في ساحلها

(١) انظر ابن خلكان ١ / ١٤٠ وابن الأثير في هذه السنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكاد أن يتغلب عليها ، ولكنه فشل فتجمع ناصر الدولة وأولاده جميعاً وساروا نحو الموصل يعضدون أبا تغلب فدخلوها وأمروا أبا العلاء وسبكتكين وبكتوزون وملكوا كل مال معز الدولة وسلاحه ؛ لهذا قصد معز الدولة الموصل ففر بنو حمدان لما سمعوا بعودته واستمرت هذه الفتنة طويلاً حتى صالح أبو تغلب معزَ الدولة على مال قرره وعلى أن يطلق ما عنده من الأسرى ففعل .

منذ ذلك الحين استراح بنو حمدان من قتال الغرباء ولكنهم جعلوا بأسهم بينهم فتجالدوا بالسيوف وأذاقوا البلاد شتى ألوان العسف والظلم ففي سنة ٣٥٦ هـ قبض أبو تغلب على أبيه ناصر الدولة وحبسه في قلعة أردمشت مدعياً أن أباه أصيب بفساد في عقله لتضييقه على أبي تغلب وإخوته ومخالفته إياهم فيما يرون من ضروب السياسة ، وكان فيما خالفهم فيه أنه لما مات معز الدولة بن بويه عزم أولاد ناصر الدولة على قصد العراق وأخذه من بختيار بن معز الدولة فنهاهم وحذرهم سوء المغبة وقال لهم فيما قال : « إن معز الدولة خلّف أموالاً يستظهر بها ابنه فاصبروا حتى يتفرّق ما عنده ثم اقصدوه وفرّقوا الأموال في الجند والناس فإنكم تظفرون به لا محالة » فلم يعجب هذا القول أبا تغلب فأراد حبس أبيه فاختلف هو وإخوته في ذلك ثم تغلب عليهم لأنه كان أدهاهم فوثب على أبيه ورفعه الى القلعة ووكل به من يقوم بخدمته وحاجاته ، وانتثر أمر بني حمدان من يومئذ وصار قصاراهم حفظ ما في أيديهم ، ثم انعكس الأمر فأصبح أبو تغلب محتاجاً الى مداراة بختيار بن معز الدولة البويهي وتعهد له بأن يدفع اليه ضمان البلاد ألفي ألف ومائتي ألف درهم . وفي سنة ٣٥٨ هـ عظم الخلاف بين أولاد ناصر الدولة الحمداني ولقي الناس منهم بلاءً عظيماً واضطربت البلاد وهاجر العلماء والأغنياء وأرباب الصناعات وانتهى الأمر بأن استقر أبو تغلب في الموصل وما اليها وهدأت الحالة نحواً من خمس سنوات . وفي سنة ٣٦٣ هـ سار بختيار البويهي الى الموصل فاضطرب أمرها ثم دخلها وطارد أهلها وأخذ أموالهم ، ولكن أبا تغلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عاد فجمع جموعه وطرده ففرح الموصليون بذلك فرحاً عظيماً كما يحدثنا بذلك ابن الأثير الموصلي .

وفي سنة ٣٦٧ هـ قصد بختيار الشام ومعه حمدان بن ناصر الدولة الذي حسّن له أخذ الموصل من أخيه أبي تغلب لكثرة أموالها وفخامة مركزها وأطمعه فيها وانها خير من الشام وأسهل وأقرب فرضي بختيار أن يقدم على ذلك وسار نحوها وكان عضد الدولة البويهي قد حلّفه ألاّ يقصدها فنكث بيمينه وقصدها ، ولما بلغ الخبر أبا تغلب كتب الى بختيار يعاتبه وطلب منه أن يقبض له على أخيه حمدان وأنه اذا فعل ذلك سار هو معه الى قتال عضد الدولة فبلغ ذلك عضد الدولة فسار الى الموصل وتملكها ، وظن أبو تغلب أنه يفعل كما كان يفعل غيره ، أي انه يقيم يسيراً ثم يضطر الى المصالحة ويعود ، وكان عضد الدولة حازماً اذا قصد بلداً لم يتركه حتى يوطّد أمره فيه فانه لما قصد الموصل حمل معه اليها الميرة والعلوفات ومن يعرف أعمالها ويقوم بكتاباتها واخراجها فأقام بالموصل مطمئناً وأرسل السرايا في طلب الأمان . وهكذا انتهى ملك الحمدانيين في الموصل [1] ، وانتقلت الى بني بويه يولون عليها من يريدون حتى استقر أمرها في أواخر هذا القرن الى بني عقيل .

هذه نظرة مجملة الى تاريخ العراق أو بالأحرى الموصل في قرن لم تهدأ فيه الفتن بل كانت تتوالى عليه فتخرّبت المساجد وتهدّمت الأسواق والقصور والدور ، وكسدت سوق العلم والعلماء فلم ينبغ في تلك الديار نابغ ، وهجرها كثير من رجال الأدب الى غيرها طلباً للهدوء والسكينة أو الرزق والطمأنينة ، وليست الحروب وحدها هي التي أقضت مضاجع الموصليين وجيرانهم بل كانت الفتن الأهلية جد كثيرة أيضاً وقلّما خلت سنة من ثورات داخلية أو حروب أهلية ؛ ففي سنة ٣٠٧ كانت فتنة عظيمة في الموصل وأعمالها بين باعة الطعام وبين

(١) انظر عاقبة أمر ابي تغلب في تاريخ ابن خلكان ١ / ١٤١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأساكفة ، واحترق سوق الأساكفة بما فيه ، وكان الوالي خارجاً عن المدينة فسمع بالفتنة فرجع ليوقع بالثائرين فحصنوا البلد وسدوا الدروب فلما رأى ذلك ترك قتالهم وأمر من التفّ حوله من أعراب البادية أن يخربوا الأعمال ويقطعوا الطرقات ويهدموا الجسور فخربت المدينة وبلغ الخبر الى الخليفة فعزله وكان الأمير آنئذٍ العباس بن محمد فاستبدل به عبد الله بن محمد وكان هذا عفيفاً صارماً فاستقرّت الأمور به .

وفي سنة ٣٠٧ أيضاً ثارت فتنة كبرى بين الموصليين وبين الأكراد المارداني ولم تهدأ حتى أرسل الخليفة الحاجب محمد بن نصر فهدأها وأعاد السكينة الى ربوعها . وفي سنة ٣١٠ وقعت الفتنة الكبرى بين أصحاب الطعام ثانية وبين أهل المربّعة والبزازين فظهر أصحاب الطعام على أولئك أول النهار ثم انضم الأساكفة الى أهل المربّعة والبزازين فاستظهروا بهم وقهروا أصحاب الطعام وهزموهم وأحرقوا أسواقهم ، وتتابعت الفتنة بعد هذه الحادثة كما يحدثنا ابن الأثير واجترأ أهل الشرّ وتعاقد أصحاب الخُلْقان والأساكفة على أصحاب الطعام فهزموا الأساكفة ومن معهم وأحرقوا سوقهم وقتلوا منهم مقتلةً عظيمة وركب أمير الموصل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني ليسكّن الناس فلم يسكنوا ولا كفّوا ثم دخل بينهم ناس من العلماء وأهل الدين فأصلحوا بينهم .

ومن يقرأ تاريخ الموصل في هذه الفترة يعثر على أخبار كثيرة من مثل هذه الفتن ، والحق أن أمراء بني حمدان ما كانوا يهتمون بغير الحروب والقتال وجمع الأموال أما العمران والسهر على راحة الناس فشيء لا يعرفونه . وقد ظلت الموصل على هذه الفوضى في حياتها العلمية والعقلية والعمرانية حتى انتقل أمرها الى بني بويه ، ففي سنة ٣٧٩ يحدثنا ابن الأثير أن عضد الدولة شرع في عمارة بغداد والعراق عامة وكانت قد خربت بتوالي الفتن فعمر مساجدها وأسواقها وأدرّ الأموال على الأئمة والمؤذنين والعلماء والفقراء ، وألزم أصحاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البيوت الخراب بعمارتها وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والشعراء والنسابين والأطباء والحساب والمهندسين ، وأذن لوزيره النصراني نصر بن هرون في عمارة البيع وإطلاق الأموال لفقرائهم [1] .

أما بعد فقد ظهر لك مما سبق أن العراق عامة والموصل خاصة مرت في تلك الفترة بآونة مزعجة مضطربة سواء في السياسة أو في العمران ، غير أن النشاط العلمي القوي الذي كان في القرنين السابقين قد استمر بالقوة الدافعة التي كان يسببها بعض الاستمرار ، وسترى في الفصل الآتي بعض مظاهر هذا الاستمرار وتعدد نواحيه .

* * *

سيرته

أبو الفتح عثمان بن كنتي [2] أو جنتي الرومي الموصلي الأزدي مولاهم ، ولد قبل الثلاثين والثلاثمائة [3] ولا نعلم من أوليته شيئاً سوى ما يذكره الرواة

(١) ابن الأثير حوادث سنة ٣٧٩ .

(٢) يقول طاش كبري في مفتاح السعادة ج ١ ص ١١٤ إنه معرب (گتى) ، وكذلك نقل السيوطي في بغية الوعاة ص ٣٢٣ . أما الأستاذ بركلمان فيقول في كتابه (تاريخ الآداب العربية) G. A. L. ١ / ١٢٥ « وربما كان هذا الاسم آتياً من Gennaios گنايوس » أي انه تعريب لهذا الاسم اليوناني وقد حدثني المستشرق الأستاذ ماسينيون أنه ربما كان من (چيناريوس) يعني الشهر الأول من العام الميلادي لأنهم كانوا يسمون بهذا الشهر ايضاً . ولعل أصح الأقوال هو ما ذهب إليه الأستاذ بروكلمان لأن ذلك أقرب إلى التسمية والواقع .

(٣) اختلفت العلماء في سنة ميلاد ابن جني ؛ فأكثر القدماء يذهبون إلى أنه ولد قبل الثلاثين والثلاثمائة ومن هؤلاء ابن خلكان في الوفيات ج ١ ص ٣١٤ ، وياقوت في الإرشاد ج ٥ ص ١٥ : وطاش كبري في مفتاح السعادة ج ١ ص ١١٤ ، والسيوطي في البغية ص ٣٢٢ . ويقول بروكلمان في تاريخه الآداب العربية G. A. L. « إنه ولد قبل الثلاثمائة » وفي دائرة المعارف الاسلامية —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عنه من أن أباه كان مولىً روميًا (يونانيًا) لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي [١] وانه نشأ في الموصل فتعلم بها ما شاء الله أن يتعلم ثم رحل الى بغداد فقرأ العربية على الإمام أبي علي الفارسي [٢] (— ٣٧٧) ولازم وقرأ القراءات والأدب واللغة على جماعة منهم أبو صالح السليل بن أحمد بن عيسى بن الشيخ [٣] وأبو اسحق ابرهيم بن أحمد القرمبسيني [٤] وابو الحسين علي بن عمر بن عمرو [٥] وبندار بن عبد الحميد الكرخي [٦] وابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن [٧]

— « إنه ولد قبل الثلاثمائة » ويقول الأستاذ بروبستر Prōbster ناشر (كتاب المقتضب) في المقدمة ص ١٠ « إنه ولد حوالي سنة ٣٢٠ » . . . وهذا الرأي هو الذي اختاره زميلنا الأستاذ القصاص في رسالته عن ابن جني ص ٢ . فنحن أمام أقوال كثيرة وليس من شك في أن اضطراب المؤرخين المحدثين آتٍ من اضطراب القدماء ، ولعل خير مايقال في هذا الصدد انه ولد قبل الثلاثين والثلاثمائة لأنه يذكر في الخصائص ج ١ ص ٧٦ « ان أبا علي الفارسي شيخه قد أنشده بالموصل سنة احدى وأربعين . . . » ومن المعقول جداً أن يكون في أواسط العقد الثاني على الأقل حين استماعه الى شيخه في هذه السن .

(١) انظر ياقوت في الارشاد ج ٥ ص ١٥ ، وابن خلكان في الوفيات ج ١ ص ٣١٣ . ويقول القصاص ص ٣ [ولم أعثر له على خبر في كتب التراجم] .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣١٣ .

(٣) انظر الخصائص ج ١ ص ٣٦٥ و ص ٣٩٢ من الطبعة الأولى فقد ذكر ابن جني ثمة نقولاً عن أبي صالح هذا . ولم أعثر على ترجمته وأغلب ظني أنه احد الأعراب الذين كانوا يفدون الى الحاضرة . وقد روى أبو صالح هذا كثيراً عن أبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي (— ٣١٠) واخباره في ابن خلكان ١ / ٥٠٣ وبغية الوعاة ص ٥٠ .

(٤) نقل عنه في الخصائص ج ١ ص ٧٧ ، وذكره ياقوت ج ٥ ص ٢٠ ولم أعثر على أخباره .

(٥) ذكره في الخصائص ح ١ ص ٨٢ ولم أعثر على شيء من خبره .

(٦) ذكره في الخصائص ج ١ ص ٢٥٣ وترجمته في البغية ص ٢٠٨ وطبقات الزبيدي المحفوظة في خزانتنا ص ٢٦ ورقم ١٤٨ .

(٧) أكثر من النقل عنه في الخصائص ج ١ الطبعة الأولى وخصوصاً في الصحائف ١٠٢ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٤١٠ وذكره في سر الصناعة ص ١١٣ وترجمته في المنتظم ٦ / ٢٦١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وابو بكر جعفر بن محمد بن الحجاج [١] وابو سهل احمد بن محمد القطان [٢] وابو العباس احمد بن محمد الموصلي الأخفش الثاني [٣] وابو الفرج الاصفهاني علي ابن الحسين [٤] وابو بكر محمد بن يعقوب بن مقسم [٥] وابو بكر محمد بن هرون الروماني [٦]، ومحمد بن سلة [٧]. كما أخذ عن جماعةٍ من الأعراب الفصحاء الذين كانوا يردون الحواضر ومنهم محمد بن العساف الشجري الجوتي التيمي [٨] قد استشهد ابن جني بأقواله ومسائله في كثير من كتبه [٩] ومنهم ابو صالح السليل الذي تقدم الحديث عنه.

رحل ابن جني في سبيل العلم الى أنحاء العراق والشام وغيرهما من الأمصار كما ذكر ذلك في الإجازة التي كتبها عام ٣٨٤ لأبي عبد الله الحسين بن احمد ابن نصر والتي حفظ لنا نصها ياقوت في معجمه [١٠].

وليس من شك في أن أكثر شيوخه تأثيراً فيه هو أبو علي الفارسي إمام وقته في النحو والصرف [١١] والرواة يذكرون قصةً عن اتصال ابن جني بأبي علي وشدة تعلقه به، ولا أرى بأساً من إيرادها لما فيها من الطرافة، فقد ذكرها ياقوت فقال: «وحدثت أنه صحب أبا علي الفارسي أربعين سنة وكان السبب

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٣٩١ ولم أعثر على شيء عنه.
(٢) المبهج ص ٢٦ وسر الصناعة ص ٢٦٣، ٤٤٧ وانظر ترجمته في المنتظم ٧ / ٣.
(٣) بغية الوعاة ص ١٧٠.
(٤) سر الصناعة ص ٦٤، ١٥٥، ١٥٦.
(٥) نقل عنه في سر الصناعة ص ١٧٦، ٦٣٥.
(٦) نقل عنه في الخصائص ١ / ٧٧.
(٧) انظر سر صناعة الاعراب، المطبوع ١ / ٣٥.
(٨) انظر الخصائص ج ١ ص ٧٨.
(٩) انظر معجم ياقوت ج ٥ ص ٢٠.
(١٠) انظر معجم ياقوت ج ٥ ص ٢٥.
(١١) انظر ابن خلكان ج ١ ص ١٣١ ومفتاح السعادة ج ١ ص ١٣٨.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في صحبته له أن أبا علي اجتاز بالموصل فمرّ بالمسجد الجامع وأبو الفتح في حلقة يقرئ النحو وهو شاب فسأله أبو علي عن مسألة في التصريف فقصّر فيها فقال له أبو علي زبّبت قبل أن تحصرم، فسأل عنه فقيل له هذا أبو علي الفارسي فلزمه من يومئذ واعتنى بالتصريف [1] » .

قلت ويظهر أن هذه القصة مصنوعة لأن ابن خلكان يرويها على شكل آخر فيقول : « ... قرأ الأدب على الشيخ أبي علي الفارسي وفارقه وقعد للإقراء بالموصل فاجتاز بها شيخه فرآه في حلقة والناس حوله يشتغلون عليه فقال له : تزبّبت وأنت حصرم .. » [2] .

فالفرق بين الروايتين يظهر من وجوه ثلاثة :

أولاً — أن الرواية الأولى تذكر أن ابن جني ما كان يعرف أبا علي لما وقف عليه في الحلقة ، والرواية الثانية تنص على أنه كان يعرفه بل تزعم انه كان تلميذه .

ثانياً — يذكر ابن جني في كتابه الخصائص « .. إن أبا علي أنشده بالموصل سنة إحدى وأربعين ... [3] » ونحن نعرف أن ابن جني قد ولد حول الثلاثين والثلاثمائة فعلى هذا يكون عمر ابن جني في سنة إحدى وأربعين نحواً من اثنتي عشرة سنة وما يجوّز عقل أن انساناً له هذا العمر يرحل في طلب العلم قبل هذه السن من الموصل الى بغداد ثم يعود ويحلّق حلقةً يعلم فيها النحو ؟ ؟

ثالثاً — جرت عادة المترجمين من المتقدمة أن يختلقوا قصصاً وروايات يعللون بها أسباب انصراف هذا الطالب الى ذاك العالم أو هذا الشيخ

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥ .
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣١٣ .
(٣) الخصائص ج ١ ص ٧٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيخترعون لذلك قصصاً ينسجها خيالهم . وأنا أرى أن قصة الزبيب والحصرم من هذا النوع ابتدعه مترجمو ابن جني ليبينوا سبب تعلق ابن جني بالصرف أولاً وبشيخه أبي علي ثانياً .

وكان أبو الفتح شديد الحب لشيخه كثير الإعجاب به مكبراً علمه وعقله ، وقد ذكر الرواة أن ابن جني ثقة حجة فيما ينقل عن شيخه الفارسي (١) وقد أكثر من النقل عنه في كتبه ، وإن ما بقي بأيدينا من كتبه مثل سر الصناعة ، والخصائص ، والمبهج ، والمحتسب ، والتنبيه ، كله مملوء بأقوال أبي علي والاعتماد عليها ، والترجيح بها .

ويظهر أن أبا الفتح كان شديد التعلق بشيخه فقد كان يتنقل معه أينما رحل ويحل حيث حل ؛ ذكر في الخصائص أن أبا علي حدثه بالشام عن مسألة ... (٢) وذكر الذهبي : أنه لزم أبا علي وتبعه في أسفاره حتى أحكم العربية (٣) فكانا لا يكادان يفترقان ، فأقاما معاً في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب ، وفي بلاط عضد الدولة البويهي في إيران .

وكان ابن جني أيضاً شديد الإيمان بسعة علم شيخه ، وقوة قياسه ومعرفته بالتصريف خاصة ، حتى إن التصريف أصبح همه لا يعتاقه عنه ولد ولا يعارضه فيه متجر وهاك بعض كلامه يؤيد ما قلناه :

« ... سألني أبو علي رحمه الله عن ألف (يا) من قوله فيما أنشده أبو زيد :

فخيرٌ نحنُ عندَ الناسِ منكمْ إذا الداعي المثوّبُ قالَ يالاَ

فقال أمنقلبة هي ؟ قلت لا ، لأنها في حرف أعني (يا) قال بل هي منقلبة فاستدللته على ذلك فاعتصم بأنها قد خلطت باللام بعدها ووُقف عليها فصارت

(١) المزهر ج ١ ص ١٧٥ .
(٢) الخصائص ج ١ ص ١٣٧ .
(٣) تاريخ الذهبي حوادث سنة ٣٩٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اللام كأنها جزء منها فصارت (يال) بمنزلة (قال) والألف في موضع العين وهي مجهولة فينبغي أن يحكم عليها بالانقلاب عن الواو ، وهذا أجمل ما قاله ولله هو وعليه رحمته ، فما كان أقوى قياسه وأشد بهذا العلم اللطيف الشريف أنسه ، فكأنه إنما كان مخلوقاً له ، وكيف لا يكون كذلك وقد أقام على هذه الطريقة مع جلة أصحابها وأعيان شيوخها سبعين سنة رائحةً عليه غاديةً عنه كَلَفُه ، وجعله همَّه وسدَمه لا يفتاقه عنه ولد ولا يعارضه فيه متجر ، ولا يسومُ به مطلباً ، ولا يخدم به رئيساً ، إلاّ بأخرة ، وقد حطّ من أثقاله ، وألقى عصا ترحاله ، ثم إني ـ ولا أقول إلاّ حقاً ـ لأعجب من نفسي في وقتي هذا كيف تطوع لي بمسألة ؟ أم كيف تطمُح بي الى انتزاع علة ؟ مع ما الحالُ عليه من عُلَق الوقت وأشجانه ، وتداؤبه وخلّج أشطانه ، ولولا مُعازّةُ الخاطر واعتناقه ، ومساورةُ الفكر واكتدارُه ، لكنت عن هذا الشأن بمعزل وبأمرٍ سواه على شغل[1] » .

فنحن نرى في هذا النص شدة إعجاب ابن جني بشيخه كما نرى فيه إعجابه بنفسه من انصرافه الى هذا النوع من البحث مع ما هو عليه من سوء الحال ، ولكن ذلك كله أناه من تشجيع شيخه الذي كان يرى فيه المثل الأعلى للعالم المدقق والباحث المنصرف الى طلب العلم والحقيقة .

ويظهر أن انصراف ابن جني الى أبي علي وشدة تعلقه به وانقطاعه اليه لم يؤثر في عمله ومذهبه في البحث فحسب ، ولكن أثّر أيضاً في عقيدته ومذهبه في الدين ؛ فان أبا علي كان من كبار شيوخ المعتزلة ، قال ياقوت في ترجمة محمد بن طوس القصري : « .. هو من النحويين المعتزلة أحد تلاميذ أبي علي الفارسي »[2] .

(١) الخصائص ج ١ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ الطبعة الأولى .
(٢) انظر بغية الوعاة ص ٥٠ ، وابن خلكان ج ١ ص ١٣٢ ، والمزهر ج ١ ص ٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذه العبارة تدلنا على أن النحويين المعتزلة كان يتلمذون على أبي علي أو بعبارة أصح تدلنا من وراء سطورها على أن أبا علي كان يحبّب الى تلاميذه في النحو والعربية مذهب الاعتزال لما له من صلة بالمنطق (١) .

ثم إنا حين ندقق في آثار ابن جني نرى فيها روح الاعتزال قوية فانه في كل آثاره وبخاصة في (الخصائص) و (سر الصناعة) يكثر من تحكيم العقل وطرد الأقيسة وحبّ المجادلة التي تماشي العقل والمنطق ، وإنك لتقرأ الفصول الأولى من كتابه (الخصائص) فيخيّل اليك أنك تقرأ أبحاثاً منطقية لا مناقشات صرفيةً أو لغويةً ؛ انظر مثلاً الى قوله في (سر الصناعة) حيث الكلام على الصفات :

« ... وليس يريد النحويون بالصفة ما يريد المتكلمون بها من نحو القدرة والعلم والسكون والحركة لأن هذه الصفات غير الموصوفين بها ، ألا ترى أن السواد غير الأسود ، والعلم غير العالم والحركة غير المتحرك وإنما الصفة عند النحويين هي النعت ... (٢) » .

أفلا تنظر في هذا رأي المعتزلة في صفات الخالق سبحانه .

وقد ظلّ أبو الفتح ملازماً أستاذه الفارسي في بغداد وفي رحلاته العلمية الى أن مات الشيخ في ربيع الآخر أو الأول من سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فحل محله والتفّ تلاميذُ أبي علي حول زميلهم وخليفة شيخهم حتى أصبح إمام بغداد وحجتها غير مدافع ، كما أصبح مرجع العالم الإسلامي في علوم العربية .

وقد تقلد أبو الفتح بعض مهام الدولة فكتب لسيف الدولة بن حمدان

---

(١) المجلة (؟ !) .

(٢) سر الصناعة مخطوطتنا ٢٩ وانظر أيضاً كتاب الخصائص ج ١ ص ٢٣ من الطبعة الأولى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صاحب حلب ، كما كتب لعضد الدولة الديلمي صاحب المشرق [١] والتقى بأبي الطيب المتنبي عندهما فقويت أواصر الصلات بينهما وكان المتنبي يحبه ويعجب بذكائه ويقول فيه : « أبو الفتح هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » وسئل المتنبي مرةً بشيراز عن معنى قوله في مخاطبة أبي شجاع :

وكان ابنا عدوٍ كاثراه له يأتي حروف انيسيان

فقال : لو كان صديقنا أبو الفتح حاضراً لفسره [٢] » .

وروى ياقوت : أن أبا الفتح بن جني كان بحلب يحضر عند المتنبي الكثير ويناظره في شيء من النحو من غير أن قرأ عليه ديوان شعره إكباراً لنفسه عن ذلك [٣] .

ولما كان أبو الفتح في بغداد اتصل بالشريف الرضي محمد بن حسين العلوي وقد فسر له بعض قصائده [٤] كالقصيدة التي رثى بها أبا طاهر بن ناصر الدولة

---

(١) انظر ياقوت ج ٥ ص ١٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية في ترجمته وذكر الصابي في كتاب تاريخ الوزراء « انه خدم عضد الدولة وصمصام الدولة وشرفا وبهاءها اه » ج ٨ ص ٤١٧ وكذلك ذكر الذهبي في تاريخه في حوادث سنة ٣٩٢ .

(٢) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٧ وتفسير البيت ان كلمة (انسان) مركبة من خمسة حروف فلما صغرت صارت مركبة من سبعة فازدادت الحروف وصغر المعنى . فهو يقول لأبي شجاع ان عدوك الذي يكاثرك بولديه لا يؤبه له لأن مثله مثل (انسان) اذا صغرتها .

(٣) معجم ياقوت ج ٥ ص ١٦ ، تاريخ الوزراء للصابي ج ٨ ص ١٤٧ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ج ٥ ص ٢٠ — ٢٢ وقد اختلف العلماء في قراءة ابن جني على أبي الطيب شعره والصحيح أنه قرأه عليه كما يقول ابن خلكان وكما يقول هو نفسه في شرحه الديوان :

كنت قرأت ديوان أبي الطيب عليه فقرأت عليه قوله في كافور :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة ولا أشتكي فيها ولا أتعتب

وبي ما يذود الشعر عني أقله ولكن قلبي يابنة القوم قلب

فقلت له : يعز علي كيف يكون هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة فقال : حذرناه وأنذرناه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والتي أولها :

ألقي السلاحَ ربيعة بن نزار أودى الردى بقريعكِ المغوارِ (١)

وكالقصيدة التي رثى بها الصاحب بن عباد وأولها :

أكذا المنون تقنطر الأبطالا أكذا الزمان يضعضع الاجبال (٢)

وكالقصيدة التي رثى بها الصابي وأولها :

أعلمت من حملوا على الأعوادِ أرأيت كيف خبا ضياءُ النادي (٣)

وقد شكره الشريف على ذلك ومدحه بقصيدةٍ أولها :

أراقب من طيف الحبيب خيالا ويأبى خيال أن يزور خيالا (٤)

وهي في خمسة وثلاثين بيتاً أشاد فيها الشريف بمناقب صديقه أبي الفتح وعلمه وفيها يقول :

فدى لأبي الفتح الأفاضل إنه بزٌّ عليهم إن أرمّ وقالا

إذا جرت الآدابُ جاء امامها فريداً وجاء الطالبون إفالا

فتى مستعاد القول حسناً ولم يكن يقول محالاً أو يحيل مقالا

ليقري أسماع الرجال فصاحة ويورد أفهام العقول زلالا

ويجري لنا عذباً نميراً وبعضهم إذا قال أجرى للمسامع آلا

... ولما رأيت الوفر دون محله جزاءً وقد أسدى يداً وأنالا

بعثت له وفراً من الشعر باقياً وكنزاً من الحمد الجزيل ومالا

فسم آخراً منه كوسمك أولاً وشنٌ عليه رونقاً وجمالا

ومثلك إن أولى الجميل أتمه وإن بدأ الإحسان زاد ووالى

---

(١) ديوان الشريف الرضي ج ١ ص ٣٧٨ .

(٢) ديوان الشريف الرضي ج ٢ ص ٦٧٠ .

(٣) الديوان ج ١ ص ٢٩٤ .

(٤) الديوان ج ٢ ص ٦٤٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكأنه في البيت الأخير والذي قبله يطلب منه أن يفسر ديوانه كله كما صنع بشعر أبي الطيب ولكنّ أبا الفتح لم يفعل ذلك .

ولما مات الشيخ أبو الفتح اشتدّ حزن صديقه الشريف الرضي عليه وصلى عليه ورثاه بقصيدة من أجود شعره في نحو من سبعين بيتاً قال فيها (١) :

ألا يا لقومي للخطوب الطوارق ... وللعظم يرمى كل يوم بعارق
وللدهر يُعري جانبي من أقاربي ... ويقطع ما بيني وبين الأصادق

ومنها : يذكر بلاغته وفهمه لدقائق المعاني وقد أجاد :

فمن لأوابي القول يبلو عراكها ... ويحذفها حذف النبال الموارق
إذا صاح في أعقابها اطّردت له ... ثواني بالاعناق طرد الوسائق
وسوّمها ملس المتون كأنها ... نزائع من آل الوجيه ولاحق
... ومن للمعاني في الأكمة ألقيت ... الى باقر غيبَ المعاني وفاتق
يطوّح في أثنائها بضميره (٢) ... مريرَ القوى ولأج تلك المضائق
تسنّم أعلى طودها غير عاثر ... وجاور أقصى دحضها غير زالق
طوى منه بطن الأرض ما تستعيده ... على الدهر منشوراً بطون المهارق (٣)

ومنها ؛ يذكر خالص وفائه وصداقته وشرف نفسه وسمو أخلاقه :

مضى طيب الاردان يأرج ذكره ... أريج الصبا تندى لعرنين ناشق
كأن جميع الناس أثنوا عشيةً ... على بعض أمطار الربيع المغادق
وما احتاج برداً عير بردِ عفافه ... ولا عرف طيبٍ غير تلك الخلائق
وفارقني عن خلة غير طرفة ... تضمنها صدر امرىء غير ماذق
تروّق ماء الود بيني وبينه ... وطاح القذى عن سلسل الطعم رائق
فما العهد مني إن لهوت بثابتٍ ... ولا الود مني إن سلوت بصادق

(١) الديوان ج ١ ص ٥٦٢ .
(٢) لعلها « ببصيرة » .
(٣) « الورق والصحائف » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فما أصدق هذه العاطفة وأكرم هذا الرثاء من الشريف الرضي في أبي الفتح . ولا عجب فان أبا الفتح لم يكن صديق الشريف فحسب ولكنه كان أستاذه وهو الذي خرّجه في الشعر على طريقة أبي الطيب المتنبي كما يذكر ذلك الأستاذ ميتس Mez (١) .

[وبعد] فقد ظلّ أبو الفتح يعلّم الناس ويؤلف ويرحل في طلب العلم إلى أن أدركه الأجل يوم الجمعة لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة للهجرة وهي الليلة الموافقة لليله السادسة عشرة من (كانون الثاني) سنة ١٠٠٢ ميلادية (٢) بعد أن خرّج جمهرة لا تحصى من الفحول منهم أولاده الثلاثة عليٌّ (٣) ؛ وعلاءٌ (٣) ؛ وعالٍ (٤) ؛ وكلهم أديب فاضل محسن « قد خرّجهم وحسّن خطوطهم فهو معدودون في الصحيحي الضبط وحسن الخط » (٥) . ومن خير تلاميذه : محمد بن عبد الله بن شاهويه (٦) وعلي بن زيد القاشاني (٧) والثانيني عمر بن ثابت (٨) والأمير الشاعر عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان

---

(١) انظر كتاب الأستاذ ميتس Mez ص ٢٢٦ . والذي نراه أن ميتس يغالي في نظريته فان شعر أبي الطيب في واد وشعر الشريف في واد ، ولو كان الشريف يعجبه شعر أبي الطيب .

(٢) هكذا ذكر ابن خلكان ج ١ ص ٣١٣ وهو رأى جمهور من ترجمه وأما ابن الوردى فقد ذكر في تاريخه ج ١ ص ٣١٧ نقلًا عن المهذب المعرى في تاريخه أنه مات سنة ٣٩٠ وقال إن هذا أصح لقرب عهده بابن جني وذكر الخطيب البغدادي أنه مات سنة ٣٩٣ كما في ج ١١ ص ٣١١ .

(٣) لم أعثر على ترجمتها .

(٤) ذكره في البغية ص ٢٧٤ وقال كان مثل أبيه حسن الخط ومات سنة ٤٥٧ .

(٥) ياقوت ج ٥ ص ٢٢ .

(٦) البغية ص ٥٣ .

(٧) البغية ص ٣٣٨ وياقوت ٥ / ٢٠٧ .

(٨) البغية ص ٣٦٠ وياقوت ٤ / ٢٣٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الخفاجي الأديب الناقد المؤلف (— ٤٦٦) [١] صاحب سر الفصاحة الذي اعتمد فيه على آراء شيخه وأقواله في الفصاحة ، وعبد السلام بن الحسن بن محمد ابن البصري [٢] وعلي بن عبيد الله بن عبد الغفار الشمسي [٣] وأبو عبيد الله الحسن بن احمد بن احمد بن نصر [٤] وثابت محمد الجرجاني الأندلسي [٥] وغيرهم .

ويذكر القفطي في انباه الرواة على انباه الرواة في ترجمته : « وخدم أبو الفتح عثمان بن جني بيت آل بويه في عهد عضد الدولة وولده صمصام الدولة وولده شرف الدولة وولده بهاء الدولة الذي مات في عهده وكان ملازمهم في دورهم » فهذا يدل على أن هؤلاء الأمراء العظام كانوا يغترفون من بحره ويفيدون من علمه وانهم قد تتلمذوا عليه .

(يتبع) الدكتور محمد أسعد طلس

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٢٩٨ ، واعلام النبلاء ٤ / ٢٠٣ .
(٢) البغية ص ٣٠٥ .
(٣) ياقوت ج ٥ ص ٢٣ والبغية ص ٣٤٣ .
(٤) ياقوت ج ٥ ص ٢٢ .
(٥) ياقوت ج ٢ / ٣٩٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net